مجموعة سيرة الرسول ﷺ

باشراف

محمد أحمد برانق

(٢٦)

الوفاة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ خَرَجَ النَّبِيُّ مِنَ الْمَدِينَةِ قَاصِدًا إِلَى مَكَّةَ لأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ . وَخَرَجَ مَعَهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَهٰذِهِ الْحِجَّةُ يُسَمِّيهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ حِجَّةَ الْوَدَاعِ .

لأَنَّ النَّبِيَّ رَأَى فِيهَا مَكَّةَ . وَالْبَيْتَ الْحَرَامَ ، وَجَبَلَ عَرَفَاتٍ لآخِرِ مَرَّةٍ .

وَبَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهَا : حِجَّةَ الْبَلاَغِ .

لأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَتَمَّ فِيهَا مَا أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ . وَهُوَ الدِّينُ الإِسْلاَمِيُّ .

وَفِي هٰذِهِ الْحِجَّةِ أَلْقَى الرَّسُولُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خُطْبَةً تُعْتَبَرُ بِحَقٍّ دُسْتُورَ الإِسْلاَمِ . بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ ، اِسْمَعُوا قَوْلِى . فَإِنِّى لاَ أَدْرِى !! لَعَلِّى لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِى هٰذَا بِهٰذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا !!

وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ آيَةَ اللهِ الَّتِى أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ وَقْتَئِذٍ :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى . وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا) .

وَبَكَى أَبُو بَكْرٍ حِينَئِذٍ وَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ النَّبِىَّ قَدِ انْتَهَتْ مُهِمَّتُهُ . وَأَنَّ يَوْمَ وَفَاتِهِ قَدْ بَاتَ جِدَّ قَرِيبٍ .

عَادَ النَّبِىُّ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ أَدَّى مَنَاسِكَ الْحَجِّ . وَبَعْدَ أَنْ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ :

لَعَلِّى لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِى هٰذَا ... !!

وَبَعْدَ أَنْ قَرَأَ عَلَيْهِمْ آخِرَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتٍ خُتِمَ بِنُزُولِهَا الْقُرْآنُ . الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ فِيهِ لِلنَّاسِ دِينَهُمْ . وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ .

كَانَ النَّبِيُّ يَعْلَمُ بِلاَ شَكٍّ أَنَّ رِسَالَتَهُ الَّتِي اصْطَفَاهُ اللهُ مِنْ أَجْلِهَا قَدِ انْتَهَتْ ، فَهَا هُوَ ذَا قَدْ بَلَّغَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَهَاهُوَذَا قَدْ جَاهَدَ حَتَّى أَتَمَّ اللهُ نُورَهُ ، فَعَمَّ الإِسْلاَمُ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ حَتَّى بَاتَ لاَ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ تَغَلُّبِ الشِّرْكِ ، وَنِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ .

وَلٰكِنَّ النَّبِيَّ كَانَ لاَ يَزَالُ أَمَامَهُ مَا يَشْغَلُ بَالَهُ . وَيَنَالُ شَيْئًا مِنْ تَفْكِيرِهِ .

كَانَ الرُّومَانُ الَّذِينَ يُسَيْطِرُونَ عَلَى الْحُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ لِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ هُمُ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ يَشْغَلُونَ بَالَ النَّبِيِّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا انْتِصَارًا فِي أَيَّةِ مَرَّةٍ سَارَ إِلَيْهِمْ فِيهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ .

فَفِي يَوْمِ مُؤْتَةَ اسْتُشْهِدَ مَوْلَى النَّبِيِّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ . وَابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ جَعْفَرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ . الَّذِينَ كَانُوا يَحْمِلُونَ لِوَاءَ الْمُسْلِمِينَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدِ انْسَحَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ

بِمُنَاوَرَةٍ بَارِعَةٍ كَانَتْ مَثَارًا لإِعْجَابِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْمُتَاخِمَةِ لِلشَّامِ . مِمَّا كَانَ لَهُ أَكْبَرُ الأَثَرِ فِى دُخُولِ كَثِيرٍ مِنْ هٰذِهِ الْقَبَائِلِ فِى الإِسْلاَمِ ، وَذٰلِكَ دُونَ أَنْ يُصِيبَ جَيْشُ الرُّومَانِ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ انْتِصَارًا .

وَفِى غَزْوَةِ تَبُوكَ سَارَ النَّبِىُّ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ ثَلاَثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى حُدُودِ الشَّامِ . وَذٰلِكَ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الرُّومَ يَسْتَعِدُّونَ لِغَزْوِ حُدُودِ الْعَرَبِ . لَمْ يَخْرُجْ جَيْشُ الرُّومِ لِمُلاَقَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ تَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ دَاخِلَ بِلاَدِهِمْ . مِمَّا لَمْ يَجِدْ مَعَهُ النَّبِىُّ وَأَصْحَابُهُ دَاعِيًا لِلْبَقَاءِ . فَآثَرُوا الْعَوْدَةَ .

وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ كَانَ لاَ يَزَالُ يُفَكِّرُ فِى أَمْرِ الرُّومِ ، فَهُوَ لاَ يَأْمَنُهُمْ عَلَى حُدُودِ الْعَرَبِ . وَلاَ يَأْمَنُ أَطْمَاعَهُمْ ، وَقَدْ رَأَوُا الإِسْلاَمَ يَجْتَازُ الأَقَالِيمَ . وَيَزْحَفُ إِلَى شَتَّى الْبِلاَدِ ، وَأَصْبَحَ الْمُلُوكُ وَالْحُكَّامُ . وَكَثِيرُونَ مِنَ النَّصَارَى يَدْخُلُونَ فِيهِ رَاضِينَ وَالَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِ لاَ يَسْلُبُهُمْ حُرِّيَّتَهُمْ . وَلاَ يَتَدَخَّلُ فِى شُئُونِهِمْ ، مَا دَامُوا يَتَّبِعُونَ تَعَالِيمَهُ . وَيَدْفَعُونَ الْجِزْيَةَ الَّتِى يُقَرِّرُهَا عَلَيْهِمْ .

لِذَا أَمَرَ النَّبِىُّ بِتَجْهِيزِ جَيْشٍ لِيَسِيرَ إِلَى الشَّامِ . أَمَّرَ عَلَيْهِ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَلِصِغَرِ سِنِّ أُسَامَةَ تَهَامَسَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ :

كَيْفَ يَكُونُ أُسَامَةُ أَمِيرًا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ ؟!!

وَزَادَ تَهَامُسُ النَّاسِ حَتَّى صَارَ تَسَاؤُلاً وَاسْتِعْجَابًا . وَعَرَفَ عُمَرُ ذٰلِكَ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النَّبِىِّ وَأَبْلَغَهُ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ وَقَفَ فِى الْمَسْجِدِ يَقُولُ :

وَاللهِ لَئِنْ طَعَنْتُمْ فِى إِمَارَةِ أُسَامَةَ . فَلَقَدْ طَعَنْتُمْ فِى إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ !! وَايْمُ اللهِ إِنَّهُ كَانَ لِلإِمَارَةِ لَخَلِيقًا . وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ لِلإِمَارَةِ . فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا ، إِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ . وَعَقَدَ النَّبِىُّ لأُسَامَةَ لِوَاءَهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ يُوصِيهِ :

يَا أُسَامَةُ ، اُغْزُ بِاسْمِ اللهِ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَأَسْرِعِ السَّيْرَ تَسْبِقِ الْخَبَرَ ، وَاسْتَعِنْ بِالأَدِلاَّءِ ، وَسِرِ الْعُيُونَ أَمَامَكَ طَلاَئِعَ لَكَ ، وَسِرْ حَتَّى تَطَأَ بِخَيْلِكَ مَوَاضِعَ مَقْتَلِ أَبِيكَ ، فَاغْزُ الْقَوْمَ صَبَاحًا ، وَابْعُدْ عَنِ الْغَدْرِ ، وَلاَ تَقْتُلْ وَلِيدًا وَلاَ امْرَأَةً . فَإِذَا نَصَرَكَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَعُدْ ، وَلاَ تُطِلِ الْمُقَامَ بَيْنَهُمْ .

وَأَخَذَ جَيْشُ أُسَامَةَ فِى الاِسْتِعْدَادِ . فَعَسْكَرَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ حَتَّى يَتِمَّ تَجْهِيزُ رِجَالِهِ وَإِعْدَادُ سِلاَحِهِ .

فِي هذِهِ الآونَةِ شكَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ صُدَاعٍ أَلَمَّ بِرَأْسِهِ ، صَارَ يورقه ، وَيُقِضُّ مَضْجَعَهُ ، فَغَادَرَ دَارَهُ فِي لَيْلَةٍ ، لاَ يَصْحبه إِلاَّ مَوْلاَهُ أَبو مُوَيْهِبَةَ ، فَسَارَ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مكَانٍ اسْمُهُ بَقِيعُ الْفَرْقَدِ – وَكَانَتْ بِهِ مَقَابِرُ الْمُسْلِمِينَ – وَهُنَاكَ وَقَفَ بَيْنَ الْمَقَابِرِ يَقُولُ مُخَاطِبًا أَهْلَهَا :

السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَأَهْلَ الْمَقَابِرِ ، لِيَهْنِى لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ

النَّاسُ فِيهِ . أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا . الآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُولَى .

وَاسْتَغْفَرَ النَّبِىُّ لأَهْلِ الْمَقَابِرِ . ثُمَّ عَادَ مَعَ أَبِى مُوَيْهِبَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَقَالَ أَبُو مُوَيْهِبَةَ بَعْدَ ذٰلِكَ لِلنَّاسِ : إِنَّ النَّبِىَّ بَعْدَ أَنِ اسْتَغْفَرَ لأَهْلِ مَقَابِرِ الْفَرْقَدِ . قَالَ لَهُ : يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ ، إِنِّى قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا . وَالْخُلْدَ فِيهَا . ثُمَّ الْجَنَّةَ ، فَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذٰلِكَ ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّى وَالْجَنَّةَ .

فَقَالَ أَبُو مُوَيْهِبَةَ لِلرَّسُولِ : بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى !! خُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا . ثُمَّ الْجَنَّةَ . قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ : لاَ وَاللهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ . لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّى وَالْجَنَّةَ .

وَفِى الصَّبَاحِ مَرَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِزَوْجَتِهِ عَائِشَةَ . فَوَجَدَهَا تَشْكُو صُدَاعًا . وَتَقُولُ : وَا رَأْسَاهْ !!

فَقَالَ لَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ : بَلْ أَنَا وَاللهِ يَا عَائِشَةُ . وَا رَأْسَاهْ !!

كَرَّرَتْ عَائِشَةُ الشَّكْوَى مِنْ صُدَاعِهَا حِينَ سَمِعَتْ زَوْجَهَا يَشْكُو . فَقَالَ لَهَا

الرَّسُولُ مُدَاعِبًا : يَا عَائِشَةُ : مَا ضَرَّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِى . وَكَفَّنْتُكِ . وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ . وَدَفَنْتُكِ ؟!

فَأَجَابَتْ عَائِشَةُ وَقَدْ أَثَارَتْهَا هٰذِهِ الدُّعَابَةُ :

إِنَّ غَيْرِى مِنْ زَوْجَاتِكَ بِهٰذَا أَوْلَى .

فَابْتَسَمَ الرَّسُولُ وَشَغَلَهُ أَلَمُهُ عَنْ مُتَابَعَةِ دُعَابَتِهِ لِعَائِشَةَ .

ثُمَّ سَكَنَ عَنِ الرَّسُولِ بَعْضُ مَا كَانَ بِهِ مِنْ أَلَمٍ . فَخَرَجَ يَطُوفُ بِمَسَاكِنِ زَوْجَاتِهِ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَيْتِ مَيْمُونَةَ عَاوَدَهُ الأَلَمُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ ، وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِ الْحُمَّى ، فَدَعَا نِسَاءَهُ إِلَيْهِ . وَاسْتَأْذَنَهُنَّ فِى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ لِيُمَرَّضَ فِيهِ . فَأَجَبْنَهُ إِلَى طَلَبِهِ .

خَرَجَ الرَّسُولُ مِنْ بَيْتِ مَيْمُونَةَ عَاصِبًا رَأْسَهُ . يَسْتَنِدُ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ . حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ

وَسَرَى بَيْنَ النَّاسِ خَبَرُ مَرَضِ الرَّسُولِ . فَهَالَهُمْ ذٰلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ . وَفَزِعُوا لَهُ وَاضْطَرَبُوا . فَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ النَّبِىَّ لَمْ يَصِبْ طُولَ حَيَاتِهِ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ أَلْزَمَهُ

الْفِرَاشَ . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ حُمَّى أَلَمَّتْ بِهِ . فَقَاسَى مِنْهَا مَا يَشْكُو الآنَ مِنْ آلامٍ

فَنَبِيُّهُمْ لَمْ يُصَبْ فِي حَيَاتِهِ إِلاَّ بِوَعْكَةٍ خَفِيفَةٍ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ امْتَنَعَ بِسَبَبِهَا عَنِ الطَّعَامِ مُدَّةً قَصِيرَةً . ثُمَّ ذَهَبَ أَثَرُهَا سَرِيعًا . وَرَسُولُهُمْ لَمْ يُصَبْ فِي حَيَاتِهِ بِأَلَمٍ إِلاَّ عِنْدَمَا أَكَلَ لَحْمًا مَسْمُومًا زَالَ أَثَرُهُ بَعْدَ عِلاَجٍ سَهْلٍ يَسِيرٍ .

وَكُلُّ حَيَاةِ الرَّسُولِ بَعْدَ هٰذَيْنِ الْحَادِثَيْنِ حَيَاةُ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ . وَلاَ عَجَبَ . . فَإِنَّ تَعَالِيمَهُ تَبْتَعِدُ بِهِ وَبِكُلِّ مَنْ يَتَّبِعُهَا عَنِ الْمَرَضِ : فَمُحَمَّدٌ ﷺ لاَ يَأْكُلُ إِلاَّ إِذَا جَاعَ ، وَإِذَا أَكَلَ لاَ يَشْبَعُ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَبِلَ مِنْ هَدِيَّةِ مُقَوْقِسِ مِصْرَ عَسَلَ نَحْلِهَا . وَالْجَارِيَتَيْنِ : مَارِيَةَ وَسِيرِينَ ، وَرَدَّ الطَّبِيبَ ، وَهُوَ يَقُولُ : نَحْنُ قَوْمٌ لاَ نَأْكُلُ حَتَّى نَجُوعَ ، وَإِذَا أَكَلْنَا لاَ نَشْبَعُ .

وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَوْقَ هٰذَا نَظِيفُ الْجِسْمِ ، فَهُوَ يَتَوَضَّأُ فِي الْيَوْمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، وَيُعْنَى بِنَظَافَةِ مَلاَبِسِهِ ، وَيَحْرِصُ عَلَى حُسْنِ هِنْدَامِهِ ، وَيَحُثُّ عَلَى

النَّظَافَةِ بِقَوْلِهِ : النَّظَافَةُ مِنَ الإِيمَانِ .

وَمُحَمَّدٌ ﷺ دَائِمُ النَّشَاطِ : نَشَاطِ الْعِبَادَةِ . وَالسَّهَرِ عَلَى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ مُتَّصِلٌ بِالْحَيَاةِ اتِّصَالاً كَرِيماً : يَبْتَعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ عَنِ اللَّذَّاتِ الْمُهْلِكَةِ . وَعَنِ اللَّهْوِ الضَّارِّ .

كُلُّ هٰذِهِ الأُمُورِ تَجْعَلُ فَاعِلَهَا مُتَمَتِّعاً بِالصِّحَّةِ الْكَامِلَةِ .

فَكَيْفَ - إِذَنْ - لاَ يَفْزَعُ الْمُسْلِمُونَ وَلاَ يَضْطَرِبُونَ ، وَقَدْ رَأَوْا رَسُولَهُمُ الْحَبِيبَ يُعَانِي الْمَرَضَ وَيُقَاسِي الأَلَمَ ...؟!!

وَكَيْفَ لاَ يَجْزَعُ أَهْلُهُ ، وَيَخَافُ أَصْحَابُهُ ، بَعْدَ مَا رَأَوْهُ طُولَ حَيَاتِهِ يَحْمِلُ أَعْبَاءَ الرِّسَالَةِ سَلِيماً قَوِيًّا . صَحِيحاً مُعَافًى . لاَ يَعْرِفُ الْمَرَضُ إِلَيْهِ طَرِيقاً .

وَعَلَى ذٰلِكَ تَوَقَّفَ جَيْشُ أُسَامَةَ الَّذِي كَانَ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِغَزْوِ الرُّومِ بِأَمْرِ الرَّسُولِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ رِجَالُهُ عَلَى صِحَّةِ الرَّسُولِ .

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى النَّبِيِّ . وَالْمَرَضُ يَشْتَدُّ بِهِ . وَالْحَرَارَةُ تَرْتَفِعُ أَحْيَانًا . وَتَنْخَفِضُ أَحْيَانًا . فَإِذَا مَا ارْتَفَعَتْ رَاحَ الرَّسُولُ فِي غِمَارِ الْحُمَّى وَشِدَّتِهَا .

وَإِذَا مَا انْخَفَضَتْ تَحَامَلَ النَّبِىُّ عَلَى نَفْسِهِ فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ يُصَلِّى بِأَحِبَّائِهِ الْمُسْلِمِينَ . لَكَ اللهُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى ما بَذَلْتَ وَمَا زِلْتَ تَبْذُلُ مِنْ أَجْلِ الْمُسْلِمِينَ . . . ! !

وَفِى غَمْرَةِ هٰذِهِ الشِّدَّةِ الَّتِى كَانَتْ تُصِيبُ الرَّسُولَ قَالَ النَّبِىُّ لأَهْلِهِ : هَرِيقُوا عَلَىَّ سَبْعَ قِرَبٍ مِنْ آبَارٍ شَتَّى حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ إِلَيْهِمْ ؛ فجِىءَ بِالْمَاءِ الَّذِى طَلَبَ ، وَأَقْعَدَهُ أَزْوَاجُهُ فِى طَسْتٍ . وَصَبَبْنَ عَلَيْهِ الْمَاءَ حَتَّى طَفِقَ يَقُولُ : حَسْبُكُنَّ ! ! حَسْبُكُنَّ ! !

وَخَرَجَ النَّبِىُّ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ . فَاسْتَغْفَرَ لأَصْحَابِ أُحُدٍ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ .

وَأَدْرَكَ أَبُو بَكْرٍ مَا يَعْنِى النَّبِىُّ بِقَوْلِهِ هٰذَا فَبَكَى وَهُوَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ : بَلْ نَفْدِيكَ بِأَنْفُسِنَا وَأَبْنَائِنَا . . . ! ! وَرَأَى النَّبِىُّ مَا بَلَغَ التَّأَثُّرُ بِأَبِى بَكْرٍ فَقَالَ : عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ . . . ! !

وَأَمَرَ النَّبِىُّ أَنْ تُقْفَلَ جَمِيعُ الأَبْوَابِ النَّافِذَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ إِلاَّ بَابَ أَبِى بَكْرٍ . وَقَالَ : إِنِّى لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا كَانَ أَفْضَلَ فِى الصُّحْبَةِ عِنْدِى أَبَدًا مِنْهُ . فَإِنِّى لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ الْعِبَادِ خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءُ إِيمَانٍ حَتَّى يَجْمَعَ اللهُ بَيْنَنَا .

ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ : أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ . وَكَانَ النَّبِىُّ قَدْ شَعَرَ بِتَمَهُّلِ أُسَامَةَ ، وَبِتَرَدُّدِ النَّاسِ فِى أَمْرِ خُرُوجِ الْجَيْشِ .

ثُمَّ أَوْصَى الْمُهَاجِرِينَ بِالأَنْصَارِ قَائِلاً :

يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، اسْتَوْصُوا بِالأَنْصَارِ خَيْرًا . فَإِنَّ النَّاسَ يَزِيدُونَ ، وَالأَنْصَارُ عَلَى هَيْئَتِهَا لاَ تَزِيدُ . وَإِنَّهُمْ كَانُوا عَيْبَتِى الَّتِى أَوَيْتُ إِلَيْهَا ، فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ . وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ .

وَعَادَ النَّبِىُّ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ . وَقَدْ نَالَ مِنْهُ مَا بَذَلَ مِنْ مَجْهُودٍ . فَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ . وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ الْعِلَّةُ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ التَّالِى لَمْ يَسْتَطِعِ النَّبِىُّ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ لِيُصَلِّىَ بِهِمْ

كَمَا عَوَّدَهُمْ . فَقَالَ : قُولُوا لأَبِى بَكْرٍ : صَلِّ بِالنَّاسِ .

وَعَزَّ عَلَى عَائِشَةَ أَنْ يَتَخَلَّفَ النَّبِىُّ عَنِ الصَّلاَةِ بِالنَّاسِ كَعَادَتِهِ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا بَكرٍ رجلٌ ضعِيفُ الصوتِ ، كَثِيرُ الْبُكَاءِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ . فَقَالَ النَّبِىُّ : مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ .

فَكَرَّرَتْ عَائِشَةُ احْتِجَاجَهَا . فَصَاحَ مُحَمَّدٌ بِهَا – وَالْمَرَضُ يُهْزِهُ هَزًّا : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ . فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ كَأَمْرِ مُحَمَّدٍ . وَزَادَ الْمَرَضُ بِالنَّبِىِّ شِدَّةً ، وَأَهْلُهُ مِنْ حَوْلِهِ يَرَوْنَ مَا يُقَاسِى دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا مِنْ دَفْعِهِ شَيْئًا .

فَحَبِيبُهُمْ وَنَبِيُّهُمْ أَمَامَهُمْ تَشْتَدُّ بِهِ الْحُمَّى حَتَّى يَرُوحَ فِى غِمَارِ غَيْبُوبَتِهَا . ثُمَّ يَنْتَبِهُ وَيُفِيقُ لِتُصِيبَهُ الْغَشْيَةُ مِنْ جَدِيدٍ . وَهُوَ لاَ يَزِيدُ عَنْ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ فِى إِنَاءٍ بِجَانِبِهِ فِيهِ مَاءٌ بَارِدٌ . فَيَمْسَحُ مِنْهُ وَجْهَهُ تَخْفِيفًا لِمَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ لَهِيبِ الْحُمَّى .

وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ الْحَبِيبَةُ الَّتِى لَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ أَوْلاَدِهِ سِوَاهَا . كَانَتْ إِذَا مَا دَخَلَتْ تَعُودُهُ قَامَ إِلَيْهَا وَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِى مَجْلِسِهِ . وَلَكِنَّهُ عَجَزَ عَنْ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهَا وَيُقَبِّلَهَا كَعَادَتِهِ . فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ، أَقْبَلَتْ هِىَ عَلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ فَأَجْلَسَهَا إِلَى

جَانِبِهِ . وَأَسَرَّ لَهَا حَدِيثًا ، فَبَكَتْ فَاطِمَةُ . ثُمَّ أَسَرَّ لَهَا حَدِيثًا آخَرَ فَضَحِكَتْ فَسَأَلَتْهَا عَائِشَةُ عَنْ ذٰلِكَ . فَقَالَتْ فَاطِمَةُ : مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ

وَكَانَ مَا أَسَرَّهُ النَّبِيُّ لابْنَتِهِ . وَتَحَدَّثَتْ بِهِ فَاطِمَةُ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهَا . أَنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا : أَنَّهُ سَيُقْبَضُ فِي مَرَضِهِ هٰذَا ، فَبَكَتْ . ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَلْحَقُهُ مِنْ أَهْلِهِ . فَضَحِكَتْ .

وَهٰكَذَا أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ ابْنَتِهِ الْوَحِيدَةِ وَقْعَ الصَّدْمَةِ الَّتِي سَوْفَ تَصْدِمُهَا فِيهِ إِذَا مَاتَ ، بِأَنْ أَعْلَمَهَا مَوْتَهُ . وَطَمْأَنَهَا بِأَنَّهَا سَتَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَلْحَقُ بِهِ !

وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ الْخَارِجُونَ لِغَزْوِ الرُّومِ يُوَدِّعُونَ رَسُولَ اللهِ وَقَدْ قَرُبَ سَفَرُهُمْ . فِيهِمْ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ . وَفِيهِمْ غَيْرُهُ مِنْ كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ . وَلٰكِنْ كَيْفَ يَخْرُجُونَ وَيَتْرُكُونَ رَسُولَ اللهِ يُعَانِي مَا يُعَانِي مِنْ مَرَضٍ ...؟!! وَكَيْفَ يُغَادِرُونَ الْمَدِينَةَ وَعُقُولُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ بِهَا ..؟!!

وَحِينَمَا جَاءَ أُسَامَةُ لِتَوْدِيعِ النَّبِيِّ كَانَ النَّبِيُّ حِينَئِذٍ لاَ يَقْوَى عَلَى الْكَلاَمِ . فَصَارَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَضَعُهُمَا عَلَى أُسَامَةَ . فَعَرَفَ أُسَامَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ . فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَعَيْنَاهُ تَسِيلُ مِنْهُمَا الدُّمُوعُ الْغِزَارُ .

وَرَأَتْ فَاطِمَةُ مَا يُعَانِي أَبُوهَا مِنْ شِدَّةٍ وَأَلَمٍ ، فَلَمْ تَمْلِكْ نَفْسَهَا مِنْ أَنْ قَالَتْ : وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ ! فَقَالَ الرَّسُولُ لاِبْنَتِهِ : لاَ كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ .

وَتَشَاوَرَ أَهْلُ الرَّسُولِ فِي أَنْ يُعَالِجُوا الرَّسُولَ وَهُوَ فِي غَيْبُوبَتِهِ بِشَيْءٍ يُخَفِّفُ بَعْضَ مَا بِهِ مِنْ أَلَمٍ . فَأَعَدَّتْ لَهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيسٍ شَرَابًا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ كَيْفِيَّةَ إِعْدَادِهِ أَثْنَاءَ إِقَامَتِهَا بِالْحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

وَصَبَّ أَهْلُ الرَّسُولِ الدَّوَاءَ فِي فِيهِ . وَهُوَ فِي غَيْبُوبَةٍ مِنْ غَيْبُوبَاتِ الْحُمَّى . فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَيْبُوبَتِهِ قَالَ :

مَنْ صَنَعَ هٰذَا ؟! وَلِمَ فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ ؟! فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ : خَشِينَا يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَكُونَ بِكَ ذَاتُ الْجَنْبِ .

فَقَالَ الرَّسُولُ : إِنَّ ذٰلِكَ دَاءٌ مَا كَانَ اللهُ لِيَقْذِفَنِي بِهِ .

ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَتَنَاوَلَ جَمِيعُ مَنْ بِالدَّارِ مِنْ هٰذَا الدَّوَاءِ الَّذِى أَعَدُّوهُ لَهُ مَا عَدَا عَمَّهُ الْعَبَّاسَ . فَتَنَاوَلُوهُ جَمِيعًا حَتَّى مَيْمُونَةَ الَّتِى كَانَتْ صَائِمَةً يَوْمَئِذٍ .

وَأَفَاقَ النَّبِىُّ بَعْضَ الشَّىْءِ . فَقَالَ لأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعُودُونَهُ : هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا .

وَرَأَى بَعْضُ الْحَاضِرِينَ أَنْ يَأْتُوا بِقَلَمٍ وَقِرْطَاسٍ لِيَكْتُبُوا مَا يُرِيدُ النَّبِىُّ إِمْلاَءَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعَالِيمَ وَإِرْشَادَاتٍ . وَرَأَى بَعْضٌ آخَرُ - وَقَدْ رَأَوْا مَا يُعَانِى النَّبِىُّ مِنْ شِدَّةٍ وَأَلَمٍ - أَلاَّ يُثْقِلُوا عَلَيْهِ مُكْتَفِينَ بِمَا فِى الْقُرْآنِ مِنْ تَعَالِيمَ وَإِرْشَادَاتٍ وَنَصَائِحَ .

وَسَأَلَ النَّبِىُّ أَهْلَهُ عَنْ سَبْعَةِ دَنَانِيرَ كَانَتْ عِنْدَهُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . كَانَ قَدْ أَمَرَ أَهْلَهُ حِينَ مَرِضَ أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا . وَلٰكِنَّ اشْتِغَالَهُمْ بِمَرَضِهِ أَنْسَاهُمْ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ . فَقَالَ :

مَاذَا فَعَلْتُمْ بِالدَّنَانِيرِ السَّبْعَةِ ؟

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : إِنَّهَا مَا تَزَالُ مَوْجُودَةً يَا رَسُولَ اللهِ .

فَأَمَرَهَا النَّبِىُّ أَنْ تُحْضِرَهَا . فَلَمَّا أَحْضَرَتْهَا أَخَذَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِى كَفِّهِ وَقَالَ : مَاذَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِرَبِّهِ لَوْ مَاتَ وَعِنْدَهُ هٰذِهِ ؟!

ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهَا كُلِّهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

وَفِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ : لَيْلَةِ الاِثْنَيْنِ لِلْيَوْمِ الثَّانِى عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ انْخَفَضَتْ حَرَارَةُ النَّبِىِّ . وَزَايَلَهُ لَهِيبُ الْحُمَّى . فَقَضَى لَيْلَتَهُ هَادِئًا مُسْتَقِرًّا ، مِمَّا اسْتَبْشَرَ لَهُ أَهْلُهُ ، وَسُرُّوا لَهُ أَيَّمَا سُرُورٍ .

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ اسْتَطَاعَ النَّبِىُّ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ مُعْتَمِدًا عَلَى ابْنَىْ عَمِّهِ : عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ . وَالْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّى وَقْتَئِذٍ بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ نَبِيَّهُمْ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ . هَمُّوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ صَلاَتِهِمْ فَرْحَةً وَسُرُورًا . فَأَشَارَ لَهُمُ النَّبِىُّ بِيَدِهِ أَنْ يَثْبُتُوا فِى صَلاَتِهِمْ

وَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ مَكَانِهِ لِلنَّبِىِّ لِيَؤُمَّ الْمُصَلِّينَ فَدَفَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَبَا بَكْرٍ فِى ظَهْرِهِ وَقَالَ : صَلِّ بِالنَّاسِ .

وَجَلَسَ النَّبِىُّ إِلَى جَنْبِ أَبِى بَكْرٍ فَصَلَّى قَاعِدًا عَنْ يَمِينِهِ .

فَلَمَّا انْتَهَتِ الصَّلاَةُ . أَقْبَلَ النَّبِيُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَقُولُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ سَمِعَهُ مَنْ كَانَ خَارِجَ الْمَسْجِدِ : أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، إِنِّي وَاللهِ لَمْ أُحِلَّ إِلاَّ مَا أَحَلَّ الْقُرْآنُ . وَلَمْ أُحَرِّمْ إِلاَّ مَا حَرَّمَ الْقُرْآنُ ، وَلَعَنَ اللهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ : مَنْ ضَرَبْتُ ظَهْرَهُ فَهٰذَا ظَهْرِي فَلْيَضْرِبْنِي . وَمَنْ شَتَمْتُهُ فَلْيَشْتِمْنِي ، وَمَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالاً فَهٰذَا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ .

عِنْدَئِذٍ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لِي ثَلاَثَةُ دَرَاهِمَ عِنْدَكَ . فَأَعْطَاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ ثَلاَثَةَ دَرَاهِمَ .

وَعَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ وَقَدْ سُرَّ بِسُرُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ كَانَ يُحِسُّ أَنَّ جِسْمَهُ ضَعِيفٌ غَايَةَ الضَّعْفِ ، وَأَنَّهُ مَهْزُولٌ لاَ تَكَادُ تَحْمِلُهُ قَدَمَاهُ .

وَكَانَ سُرُورُ الْمُسْلِمِينَ بِمَظَاهِرِ الصِّحَّةِ الَّتِي بَدَتْ عَلَى نَبِيِّهِمْ عَظِيمًا . فَأَقْبَلُوا يُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَقَدِ اسْتَبْشَرُوا ، وَسَرَى السُّرُورُ وَالْفَرَحُ فِي قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ . وَأَقْبَلَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ إِلَى الرَّسُولِ يُوَدِّعُهُ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي مَسِيرِ

الْجَيْش .

وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ الرَّسُولَ فِى الْمَسِيرِ إِلَى بَعْضِ أَهْلِهِ حَيْثُ كَانُوا يَقْطُنُونَ فِى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ الْمَدِينَةِ .

وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ كُلٌّ يَنْظُرُ فِى أَمْرِهِ . وَيُرَاعِى شَأْنَهُ ، وَقَدِ اطْمَأَنَّ الْجَمِيعُ وَهَدَأَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَاسْتَقَرَّتْ نُفُوسُهُمْ .

وَفِى هٰذِهِ اللَّحَظَاتِ كَانَ النَّبِىُّ يَرْقُدُ فِى بَيْتِ عَائِشَةَ ، وَضَعْفُهُ يَزْدَادُ لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ ، وَقَدْ زَايَلَتْهُ مَظَاهِرُ الصِّحَّةِ ، وَمَعَالِمُ الْعَافِيَةِ الَّتِى رَآهَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فِى الصَّبَاحِ .

كَانَ يَرْقُدُ ، وَبِجَانِبِهِ إِنَاءٌ بِهِ مَاءٌ بَارِدٌ يَضَعُ يَدَهُ فِيهِ بَيْنَ الآوِنَةِ وَالأُخْرَى ، وَيَمْسَحُ بِهَا عَلَى وَجْهِهِ يَرْطُبُهُ مِمَّا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ وَهَجِ الْحُمَّى . وَحَرَارَةِ شَهْرِ يُونْيَةَ اللَّافِحَةِ الْقَائِظَةِ .

وَدَخَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلٌ مِنْ آلِ أَبِى بَكْرٍ وَفِى يَدِهِ سِوَاكٌ . فَنَظَرَ النَّبِىُّ إِلَى السِّوَاكِ فِى يَدِ الرَّجُلِ نَظْرَةً أَدْرَكَتْ مِنْهَا عَائِشَةُ أَنَّهُ يُرِيدُهُ . فَقَالَتْ :

يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَتُحِبُّ أَنْ أُعْطِيَكَ هٰذَا السِّوَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَأَخَذَتْهُ عَائِشَةُ مِنْ قَرِيبِهَا فَلَيَّنَتْهُ ثُمَّ أَعْطَتْهُ لِلرَّسُولِ . فَأَخَذَهُ فَاسْتَاكَ بِهِ . ثُمَّ وَضَعَهُ .

وَمَرَّتْ لَحْظَةٌ أُخْرَى رَهِيبَةٌ كَانَتْ عَائِشَةُ فِيهَا خَاشِعَةَ النَّفْسِ . وَاجِفَةَ الْقَلْبِ ؛ تَرْقُبُ عَيْنَاهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَهُوَ يَسْتَنِدُ بِرَأْسِهِ إِلَى حِجْرِهَا لَعَلَّهَا تَرَى عَلَيْهِ بَادِرَةً مِنْ بَوَادِرِ الصِّحَّةِ الَّتِي رَأَتْهَا عَلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ فَيَطْمَئِنَّ قَلْبُهَا . أَوْ تَسْمَعُ مِنْهُ قَوْلاً يُدْخِلُ الأَمَلَ إِلَى نَفْسِهَا . وَلٰكِنَّهَا لَمْ تَرَ إِلاَّ أَنَّ النَّبِيَّ يَزْدَادُ ضَعْفًا . وَلَمْ تَسْمَعْ مِنْهُ إِلاَّ قَوْلَهُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ .

وَوَجَدَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللهِ يَثْقُلُ فِي حِجْرِهَا . فَذَهَبَتْ تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ . فَإِذَا بَصَرُهُ قَدْ شَخَصَ وَهُوَ يَقُولُ : بَلِ الرَّفِيقَ الأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ .

فَقَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالذُّهُولِ : خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ . وَأَنْسَتِ الصَّدْمَةُ عَائِشَةَ قَوْلَ اللهِ : إِنَّكَ مَيِّتٌ . وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . فَوَضَعَتْ رَأْسَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الْوِسَادَةِ . وَقَامَتْ تَصْرُخُ وَتَبْكِي مَعَ النِّسَاءِ .

أَحَقًّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ...؟!!

هٰذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِى كَانَ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُ كُلِّ مُسْلِمٍ حِينَ يَسْمَعُ ذٰلِكَ الْخَبَرَ الْمُحْزِنَ الْمُؤْلِمَ الَّذِى سَرَى بَيْنَ النَّاسِ.

وَكَيْفَ يَمُوتُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟! وَقَدْ كَانَ مَعَهُمْ فِى الْمَسْجِدِ مِنْ سَاعَاتٍ. يَرَوْنَهُ وَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ ؟!

كَيْفَ يَمُوتُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟! وَهُوَ حَبِيبُ اللهِ الَّذِى اخْتَارَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ وَقَدْ آمَنَ بِهِ الْكَثِيرُ ؟!

كَيْفَ يَمُوتُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟! وَهُوَ هٰذِهِ الْقُوَّةُ الإِلٰهِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِى هَزَّتِ الْعَالَمَ كُلَّهُ . وَأَحْدَثَتْ بِهِ أَعْظَمَ انْقِلَابٍ عَرَفَهُ التَّارِيخُ ؟!

كَيْفَ يَمُوتُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟! وَهُوَ الَّذِى أَخْرَجَ النَّاسَ مِنَ الظَّلَامِ إِلَى النُّورِ . وَمِنَ الضَّلالِ إِلَى الْهُدَى ؟!

كَيْفَ يَمُوتُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟! وَبِمَوْتِهِ يَنْقَطِعُ الْوَحْىُ الَّذِى لَمْ يَنْقَطِعْ لِمَوْتِ أَىِّ رَسُولٍ قَبْلَهُ ؟!

سَرَى هٰذَا الْخَبَرُ الْمَشْئُومُ بَيْنَ النَّاسِ . وَسَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِهِ فَلَمْ يُصَدِّقْهُ . وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ مُسْرِعًا . وَدَخَلَ فَكَشَفَ وَجْهَ نَبِيِّهِ . فَوَجَدَهُ لاَ يَتَحَرَّكُ . فَظَنَّ أَنَّهُ فِى غَيْبُوبَةٍ سَيُفِيقُ مِنْهَا بَعْدَ ذٰلِكَ . فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَوَقَفَ بَيْنَ النَّاسِ الْمَحْزُونِينَ الْبَاكِينَ . وَرَفَعَ سَيْفَهُ مُهَدِّدًا بِالْقَتْلِ كُلَّ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ .

وَرَفَعَ عُمَرُ صَوْتَهُ قَائِلاً : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رِجَالاً يَقُولُونَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ مَاتَ . . . ! وَاللهِ مَا مَاتَ . . . وَلٰكِنَّهُ سَيَغِيبُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَمَا غَابَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ وَيُعَاقِبُ كُلَّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مَاتَ .

وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ وَقَدْ رَاحَ لَهُ الْخَبَرُ حَيْثُ كَانَ . فَدَخَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَعُمَرُ يَقُولُ لِلنَّاسِ : إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَمُتْ . وَالنَّاسُ فِي ذُهُولٍ وَوُجُومٍ يَكْتَنِفُهُمُ الْيَأْسُ وَيُرَاوِدُهُمُ الأَمَلُ ؛ فَلَمْ يَتَوَقَّفْ أَبُو بَكْرٍ بِالْمَسْجِدِ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَقُولُ عُمَرُ بَلْ ذَهَبَ مُسْرِعًا إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ يَسْتَأْذِنُ فِي الدُّخُولِ . فَقِيلَ لَهُ : لاَ حَاجَةَ لأَحَدٍ الْيَوْمَ بِإِذْنٍ .

فَدَخَلَ فَوَجَدَ الرَّسُولَ مُغَطًّى ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْغِطَاءَ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ وَهُوَ يَقُولُ وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ :

أَفْدِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي وَأُمِّي . . . طِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا . . . إِنَّهَا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْكَ ، فَقَدْ ذُقْتَهَا ، ثُمَّ لَنْ تُصِيبَكَ بَعْدَهَا مَوْتَةٌ أَبَدًا .

وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَعُمَرُ مَا زَالَ يُكَلِّمُ النَّاسَ وَيُرَدِّدُ بَيْنَهُمْ أَنَّ

مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَمُتْ . فَنَادَى أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ : يَا عُمَرُ . انْتَظِرْ حَتَّى أَتَكَلَّمَ ! ! أَنْصِتْ . . . ! !

وَلَكِنَّ عُمَرَ أَبَى أَنْ يَسْكُتَ أَوْ أَنْ يُنْصِتَ . وَاسْتَمَرَّ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِيمَا كَانَ يُكَلِّمُهُمْ عَنْهُ . فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّاسِ يُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ . فَالْتَفَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ لِيَتَعَرَّفُوا مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ . فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ . وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ .

ثُمَّ تَلاَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ ! وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ هٰذِهِ الْخُطْبَةَ الْحَكِيمَةَ ، فِى ذٰلِكَ الْمَوْقِفِ الرَّهِيبِ ، فَلَمَّا سَمِعَهَا الْمُسْلِمُونَ عَرَفُوا الْحَقِيقَةَ الْمُرَّةَ . وَأَدْرَكُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ حَقًّا .

كانَتْ قُلوبُهُمُ الَّتِى امْتَلأَتْ إِيمانًا وَإِخْلاَصًا وَوَفَاءً ومحبَّةً لِرَسُولِهِمْ قَدْ أَنْكَرَتْ مَوْتَهُ لِدَهْشَةٍ أَخَذَتْهَا . وَحُزْنٍ أَصَابَهَا . وَأَسًى أَلَمَّ بِهَا . فَلَمَّا تَلاَ أَبُو بَكْرٍ قَوْلَ اللهِ هٰذَا ، عَادُوا إِلَى صَوَابِهِمْ . وَخَرَجُوا مِنْ ذُهُولِهِمْ وَعَرَفُوا أَنَّ الْمُصَابَ حَقِيقَةٌ . وَأَنَّ الْفَجِيعَةَ مُرَّةٌ قَاسِيَةٌ .

وَسَمِعَ عُمَرُ كَلاَمَ أَبِى بَكْرٍ . وَسَمِعَ الآيَةَ الَّتِى تَلاَهَا فَتَأَكَّدَ أَنَّ النَّبِىَّ قَدْ مَاتَ فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ وَهُوَ يَقُولُ :

كَأَنِّى لَمْ أَسْمَعْ هٰذِهِ الآيَةَ قَبْلَ الآنَ .

أَمَّا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَإِنَّهُ عَجَزَ عَنِ الْكَلاَمِ . لِشِدَّةِ الصَّدْمَةِ الَّتِى أَصَابَتْهُ .

وَلَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ هٰذَا الْمَوْقِفِ : كَأَنَّمَا كَانَتْ عَلَى وُجُوهِنَا أَغْطِيَةٌ . ثُمَّ كُشِفَتْ .

وَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِى هٰذِهِ الآونَةِ أَنْ ثَبَّتَ أَبَا بَكْرٍ . وَمَنَحَهُ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ هٰذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ الرَّهِيبِ . الَّذِى كَادَتْ أَنْ تَتَبَلْبَلَ فِيهِ عُقُولُ الْمُسْلِمِينَ . وَتَتَشَتَّتَ أَفْكَارُهُمْ .

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ أَكْثَرَ احْتِمَالاً لِمُصَابِهِ فِي الرَّسُولِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ . وَلٰكِنَّهُ كَانَ قَبْلَ ذٰلِكَ يُحِسُّ وَيُدْرِكُ مِنْ دُونِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ نِهَايَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ قَرُبَتْ . وَكَانَ مِنْ دُونِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ بَكَى الرَّسُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ .

وَتَسَاءَلَ الْمُسْلِمُونَ : كَيْفَ تَكُونُ الْحَيَاةُ مِنْ غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟!
وَمَا الَّذِى سَيَكُونُ عَلَيْهِ حَالُ الْمُسْلِمِينَ ؟! وَمَنِ الَّذِى سَيَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ
وَيَقُودُهُمْ ؟! وَعَادَ أُسَامَةُ بِجَيْشِهِ الَّذِى كَانَ يُعَسْكِرُ بِهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ . فَرَكَزَ
رَايَتَهُ أَمَامَ بَيْتِ عَائِشَةَ . وَانْتَظَرَ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ .
وَبَيْنَمَا أَهْلُ الرَّسُولِ قَدْ أَغْلَقُوا الْبَابَ دُونَ الرَّسُولِ . كَانَ الْمُسْلِمُونَ

الْمُتَسَائِلُونَ قَدِ انْضَمَّ الأَنْصَارُ مِنْهُمْ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وَمَالَ فَرِيقٌ مِنْ آلِ الرَّسُولِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ ، وَانْحَازَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ . وَجَاءَ قَائِلٌ يَقُولُ لِعُمَرَ ولأَبِى بَكْرٍ : يَا أَبَا بكر !! يَا عُمَرُ !! إِنَّ الأَنْصَارَ اجْتَمَعُوا لِيَخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ خَلِيفَةً لِرَسُولِ اللهِ ؟ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ بِأَمْرِ النَّاسِ حَاجَةٌ فَأَدْرِكُوا النَّاسَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ .

فَسَارَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَبَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى حَيْثُ كَانَ الأَنْصَارُ مُجْتَمِعِينَ . وَهُنَاكَ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ نِقَاشٌ ، وكانَ بَيْنَهُمْ حِوارٌ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ جَدَلٌ . انْتَهَى بِأَنْ قَالَ عُمَرُ لأَبِى بَكْرٍ : ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ . فَبَسَطَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَبَايَعَهُ عُمَرُ ، ثُمَّ بَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ .

وَفِى الْيَوْمِ الثَّانِى بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ فِى الْمَسْجِدِ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَةً لِرَسُولِ اللهِ . مُهْتَدِينَ فِى ذَلِكَ بِمَا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَأَبِى بَكْرٍ مِنْ وَفَاءٍ وَحُبٍّ وَإِخَاءٍ وَطُولِ صُحْبَةٍ وَأَسْبَقِيَّةٍ فِى الإِسْلَامِ . وَبِمَا كَانَ مِنْ عَهْدِ النَّبِىِّ لأَبِى بَكْرٍ فِى الصَّلَاةِ بِالنَّاسِ .

وَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ لِجَهَازِ رَسُولِ اللهِ وَدَفْنِهِ .
وَتَشَاوَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَدْفِنُونَ رَسُولَ اللهِ ؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُدْفَنُ فِي مَسْجِدِهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُدْفَنُ مَعَ أَصْحَابِهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذٰلِكَ . ثُمَّ حَسَمَ الأَمْرَ أَبُو بَكْرٍ بِقَوْلِهِ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ : مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلاَّ دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ . وَعَلَى ذٰلِكَ رُفِعَ فِرَاشُ الرَّسُولِ الَّذِي تُوُفِّيَ عَلَيْهِ . فَحُفِرَ لَهُ تَحْتَهُ .

وَقَامَ أَقَارِبُ النَّبِيِّ فَغَسَّلُوا النَّبِيَّ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ . وَكَانَ يَتَوَلَّى صَبَّ الْمَاءِ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَشُقْرَانُ مَوْلَى النَّبِيِّ . وَعَلِيٌّ يُغَسِّلُهُ وَهُوَ يَقُولُ . لِمَا يَشَمُّ مِنْ طِيبِ رِيحِهِ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي . مَا أَطْيَبَكَ حَيًّا وَمَيِّتًا !

وَلَمَّا تَمَّ غَسْلُ النَّبِيِّ . كُفِّنَ فِي ثَلاَثَةِ أَثْوَابٍ . وَفُتِحَتِ الأَبْوَابُ لِلْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ أَفْوَاجًا يُصَلُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَيُسَلِّمُونَ . وَيُوَدِّعُونَهُ الْوَدَاعَ الأَخِيرَ .

وَإِذِ اجْتَمَعَ النَّاسُ بِحُجْرَةِ الرَّسُولِ . وَقَفَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ . نَشْهَدُ أَنَّكَ بَلَّغْتَ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، وَجَاهَدْتَ حَتَّى أَتَمَّ اللهُ النَّصْرَ لِدِينِهِ . وَإِنَّكَ وَفَّيْتَ بِوَعْدِكَ ، وَأَمَرْتَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى كَلَامِ أَبِي بَكْرٍ بِقَوْلِهِمْ : آمِينَ . . . آمِينَ . . .

وَصَلَّى الرِّجَالُ بِحُجْرَةِ الرَّسُولِ لَا يَؤُمُّهُمْ أَحَدٌ . فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنَ الصَّلَاةِ وَمِنْ وَدَاعِ نَبِيِّهِمُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ ، أُدْخِلَتِ النِّسَاءُ . ثُمَّ أُدْخِلَ الصِّبْيَانُ يَمُرُّونَ بِالرَّسُولِ يُوَدِّعُونَ وَيُسَلِّمُونَ . ثُمَّ يَخْرُجُونَ جَمِيعًا وَعُيُونُهُمْ تَفِيضُ بِالدَّمْعِ وَقُلُوبُهُمْ تَزْخَرُ بِالْأَسَى .

وَدُفِنَ النَّبِيُّ ، وَظَلَّتْ عَائِشَةُ بِبَيْتِهَا فِي الْحُجْرَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِحُجْرَةِ الْقَبْرِ سَعِيدَةً بِهٰذَا الْجِوَارِ الْكَرِيمِ .

وَكَانَ أَوَّلُ عَمَلٍ قَامَ بِهِ خَلِيفَةُ الرَّسُولِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هُوَ أَنْ أَنْفَذَ أَمْرَ

الرَّسُولِ بِبَعْثِ أُسَامَةَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ لِمُحَارَبَةِ الرُّومِ .

دَخَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ هٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَخَرَجَ مِنْهَا زَاهِدًا فِيهَا مُصَوِّرًا ذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ . مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ . ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وَكَانَ الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ آخِرَ الأَدْيَانِ وَخَاتَمَهَا وَكَانَتْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ بِهَا آخِرَ الرِّسَالَاتِ وَخَاتِمَتَهَا وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ آخِرَ الأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمَهُمْ . وَكَانَ قَوْلُ اللهِ فِيهِ : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ . وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ .

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٢٠١٠٣
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6544-6

٧/٢٠٠٣/٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)